الفصل الأول

مدخل إلى تاريخ الدولة والحضارة الإسلامية

الصراع على السلطة / الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ..!!!

ربما قد يتبادر إلى الذهن بأنه لا لزوم لمثل هذا الكتاب في مثل هذا التوقيت .. لعدم وجود علاقة بين التاريخ الإسلامي القديم وبين واقعنا المعاصر ، ولكن سوف نرى من خلال هذا الكتاب أن العلاقة ــ في حقيقة الأمر ــ وثيقة الجذور إلى حد استعراض التاريخ الإسلامي لن يتجاوز معناه عن رؤية وجودنا ومستقبلنا بوضوح لا لبس فيه . فالمعروف والمؤكد ــ في الوقت الحاضر ــ أن أهم معوقات الإصلاح السياسي في العالم العربي هو حرص الأنظمة الحاكمة على الإمارة والرغبة الجارفة في الاحتفاظ بالملك والسلطة .. يدعمها في هذا عدم وجود المسئولية الكافية ــ في المقابل ــ تجـــاه شعوب طحنها الفقر والمحن والآلام .. شعوب محكومة بعصا القهر وظلم عساكر السلطة والسلطان ..!!!

ففي الحقيقة ؛ كان يمكن للعالم الإسلامي أن يتجاوز إنجازاته الحضارية العظيمة ــ ربما بمئات أو حتى بعشرات المرات ــ لولا حرص الأنظمة الحاكمة على الإمارة والسلطة والصراع من أجل الفوز والتمسك بها . كما كان يمكن للعالم الإسلامي أن يجنب وينقذ البشرية من الضلالات الواقعة فيها ــ الان ــ لولا **اعتقاد** هذه الأنظمة الحاكمة ، في الماضي كما هو في الحاضر ، أن الإمـــارة هي الوسيلة الوحيدة ، إلى جانب تحقيق الذات أو المجد الشخصي ، لمتاع حياة أبدية .. لن ينهيها الموت في أي لحظة من اللحظات ..!!! ويدعم هذا الاعتقاد عدم وجود الوعي الكافي لدى الأنظمة الحاكمة بمعنى الدين ، وبمعنى دور الدين في حياة الإنسان .. وبالمثول ــ في النهاية ــ بين يدي رب العزة (ﷻ) لحساب عسير فيما اقترفت وقدمت أيديهم وما مارسوه من ظلم في حق العباد ..!!!

ودعنا نبدأ الآن القصة ــ بإيجاز شديد ــ منذ البداية ؛ فقد كان الوطن العربي قبل ظهور الإسلام موزعا بين دولتي الروم والفرس ، وبدأت دولة الإسلام في المدينة في عهد رسول الله (ﷺ) ثم امتدت لتشمل الجزيرة العربية ، وبعد وفاة الرسول اختار المسلمون أبا بكر خليفة .. وتبعه عمر ثم عثمان ثم عليّ .. مستندين في ذلك على مبدأ الشورى في اختيار الحاكم من بين كثرة من المرشحين .. ثم يتبع ذلك البيعة (أي الانتخاب المباشر) من عامة المسلمين . **ولكن هذا المنهاج (الديموقراطي الليبرالي بالتعبير الحديث) في اختيار الحاكم لم يستمر طويلا .. حيث حوّله " معاوية بن أبي سفيان " إلى ميراث عائلي .. عندما عهد بالحكم إلى ابنه " يزيد بن معاوية " والذي قام (من خلال واليه عبيد الله بن زياد) بذبح أهل بيت رسول الله (ﷺ)** في مدينة كربلاء في يـــوم الجمعة العاشر من المحرم سنة (٦١ هـــ / ٦٨١ م) ..!! **ومنذ هذا التاريخ بدأت الدول الإسلامية تقودها عائلات يتم انتقال السلطة فيها وراثيا .. من جيل إلى آخر ..!!!**

وقد شهد التاريخ الإسلامي صراعا دمويا وحروبا بين الدول والعائلات على السلطة بدأت بالصراع بين علي بن أبي طالب وأنصاره من جهة .. ومعاوية بن أبي سفيان وأنصاره من جهة أخرى .. والذي تحول إلى صراع تاريخي امتدت آثاره وتداعياته في التاريخ الإسلامي حتى اليوم .. بعد أن دمر معاوية بن أبي سفيان (مؤسس الدولة الأموية) مبدأ الشورى في اختيار الحاكم من بين عدة مرشحين للخلافة الإسلامية . كما شهدت العائلات الحاكمة نفسها خلافات ونزاعات داخلية على الحكم مثل القتال بين الأمين والمأمون ابني هارون الرشيد .. والذي انتهى بقتل المأمون للأمين لكي يفوز بالملك .. لكنها كانت حالات قليلة بالنسبة للصراع بين الدول والعائلات .

فالتاريخ الإسلامي ــ بكل أسف ــ يؤكد أن الأصل في قيام الدول الإسلامية بعد الخلفاء الأربعة كان بالإرهاب والعنف والقتل وتصفية الخصوم وسلب أموالهم واحتلال دورهم ثم يتم توارث الحكم بينهم فيما بعد ..!!! فمنذ بداية الدولة الأموية (أي عقب الخلافة الراشدة مباشرة) أصبح نظام الخلافة أشبه شيء بالنظام الملكي أو القيصري ، ومن ثم زادت الصفة الزمنية في الخلافة على الصفة الدينية . وأخـــذت الدولة بالنظام الإداري والمالي الذي كان متبعا في الدولتين الفارسية والبيزنطية . كما أظهرت الأحداث السياسية التي رافقت مسألة الخلافة ــ كنتيجة طبيعية لإرهاب السلطة ــ اتجاهات فكرية قامت على أساسها نظريات ذات طابع سياسي ثم ما لبثت أن تحولت إلى مذاهب دينية ..!!!

فعلى سبيل المثال ؛ عندما تحولت الخلافة إلى مُلك عضوض ، **أجاز فقهاء أهل السنة** أن يعهد الخليفة إلى ابنه أو إلى أخيه ، إذا كانت تتوفر في المعهود له صفات الخليفة ، كما أجـــازوا للخليفة أن يعهد إلى إثنين أو أكثر من أبنائه ، إذا رتب الخلافة بينهم . **كما أجازوا الخلافة لمن ينالها غصبا بالقهر والغلبة ، حتى ولو كان بارا أو فاجرا ، لكي لا يبيت المسلمون بغير إمام** . ولم يستطع فقهاء السنة وضع قواعد ثابتة للخلافة ، بل نزلوا على حكم الواقع الذي كان كثيرا ما يتقرر بالقوة ، حيث كان يرقى إلى سدة الخلافة من لا تتوفر فيه الشروط المطلوبة في الخليفة .. والتي أضحت شروطا نظرية .

ولكن أغرب ما شهده تاريخ الصراع على السلطة هو ما كان متبعا في الدولة العثمانية فهذه الأسرة التي حكمت ــ العالم الإسلامي ــ لمدة تزيد على الأربعة قرون كان يرث العرش فيها أحد أبناء السلطان فيقتل إخوانه وفق قانون متبع هو " **قتل الاخوة** " وحبس المرشحين للخلافة في " **أقفاص** " داخل سجن القصر السلطاني ..!!! وقد توصل الخلفاء إلى هذا القانون بعد حروب أهلية طاحنة بين الأخوة كادت تعصف بالدولة العثمانية . فقد حدث أن السلطان محمد الثالث قتل عام ١٥٩٥ تسعة عشر أخـــا له واثنين من أبنائه ، وصارت الأسرة الحاكمة مهددة بالفناء ، وضعفت البنية الجسدية والنفسية لأبناء الأسرة حتى إن العديد منهم تولى السلطة وهو مصاب بالجنون أو بالعلل النفسية والأمراض الجسدية ، وكان الإعدام يشمل أحيانا الأعمام وأولاد الأخوة ، وبرغم هذا كله فإن نصف سلاطين الـــدولة العثمانية قد جاءوا إلى الحكم بعزل أسلافهم [1] .

وهكذا ؛ يتوالى الصراع على السلطة حتى أصبح عالمنا العربي المعاصر ، كما سنرى ، شبيها بعصر دول ملوك الطوائف بالأندلس والذي بدأ عام ٤٢٢ هـــ (١٠٣١ م) عندما أعلن الوزير أبو **الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية بالأندلس** ، وكان هذا الإعلان بمثابة إشارة البدء لكل أمير من أمراء الأندلس لكي يتجه كل واحد منهم إلى بناء دويلة صغيرة على أملاكه ومقاطعاته ، ويؤسس أسرة حاكمة من أهله وذويه ، وبلغت هذه الأسر الحاكمة أكثر من عشرين

---

١ (١) تداول السلطة في الوطن العربي منذ ظهور الإسلام إلى الدولة العثمانية (المصدر : الجزيرة)
(٢) أنماط الاستيلاء على السلطة في الدول العربية (دراسة في الأساليب) ، تأليف: صلاح سالم زرنوقة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر .
(٣) العالم الإسلامي ورجاله (٤ أجزاء) ، تأليف : شاكر مصطفى ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .
(٤) أطلس تاريخ الإسلام ، تأليف : الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، مصر.

أسرة (كما هو الحال الأن في وجود ٢٢ دولة عربية) لا يجمعهم حتى تجمع صوري واحد .. وبدون إدراك أو التنبه إلى الأخطار المحيطة بهم ..!!!

وليت الأمر اقتصر على هذا بل أخذ ملوك الأندلس يستعينون بأمراء النصارى في صراعهم بعضهم على بعض .. (كما حدث في عصرنا هذا .. عند الاستعانة بالولايات المتحدة الأمريكية والعالم المسيحي لضرب العراق البلد المسلم [٢]) . ولعل من أهم مظاهر عصر ملوك الطوائف أنه كان عصر الاضطراب والفوضى والفتن ، **وكانت فرصة سانحة لكي يقوى شأن النصارى الأسبان ، وخاصة عندما كان يستعين بهم ملوك الطوائف في صراعاتهم مع بعضهم البعض** .. إلى حد أن الأمير ألفونس (المسيحي) كان يفرض الإتاوات على بعض الإمارات التي كانت تطلب مساعداته ..!!!

وانتهى هذا العصر بانتهاء الحضارة الأندلسية بكارثة ومأساة كاملة للعالم الإسلامي بصفة خاصة .. وللعالم غير الإسلامي بصفة عامة . **فبعد سقوط الأندلس أصدر الديوان المقدس للكنيسة الرومانية الكاثوليكية .. في السادس عشر من شهر فبراير من عام ١٥٦٨ قرارا بإدانة جميع سكان الأراضي الواطئة (مسلمي الأندلس) والحكم عليهم بالإعدام متهمين بالهرطقة (أي مخالفة الدين المسيحي) واستثنى القرار بضعة أفراد نص القرار عليهم بالاسم ..!!! وبعد عشرة أيام أعلن الملك " فيليب الثاني : Philip II " ملك أسبانيا (الذي تربي تربية دينية صارمة على يد رجال الدين الكاثوليك .. وابن الإمبراطور الروماني المقدس شارلز الخامس : Charles V) صحة القرار وأمر بتنفيذه في الحال . فسيق إلى المقصلة ملايين من الرجال والنساء والأطفال .. فيما يروي مؤرخ محاكم التفتيش " ليكي " . وفي**

---

٢ أسوق ــ للأنظمة العربية الحاكمة ــ مشهد واحد فقط من مشاهد الرسول (ﷺ) . ففي أثناء تقدم الرسول بالمسلمين متجها إلى أحدٍ ، بصر بكتيبة لا يعرف أهلها فسأل عنها فقيل : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبيّ بن سلول من يهود . قال : هل أسلموا ؟ .. قالوا : لا ! فقال عليه السلام : لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا . فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة ، فما كان من ابن أبيّ إلا أن اعتبرها فرصة يقتنصها في أن يتخاذل هو الأخر مع كتيبة من أصحابه بحجة أن النبي (ﷺ) رفض عون أنصاره ، وعاد ابن أبيّ وكتيبته قافلا إلى المدينة . وبقى النبي ومعه المؤمنون حقا وعدتهم سبعمائة .. ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشي من أهل مكــة كلهم موتور من يوم بدر وكلهم على ثأره حريص ..!!!

وماذا فعلنا نحن .. في المقابل ..؟! لقد استنصرنا بأهل الشرك على أهل الإسلام في العراق .. فأحضروا معهم الخراب والدمــار الى شعوب ودول المنطقة كلها ..!!! ومن السخريات أن يصدر الشيخ " عبد العزيز بن باز " فتوى بجواز الاستعانة بالقوات الاجنبية تحت زعم عدم وضوح الحق من الباطل .. وإنها على حد تعبيره " فتنة " ويؤيده في هذا ــ أيضا ــ الشيخ أبو بكر الجزائري / والشيخ متولي الشعراوي ..!!! وعن أبي هريرة رضى الله عنه .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة لقي الله مكتوب بين عينيه : أيس من رحمة الله " فما بالك بمن أعان على تدمير بلد إسلامي بالكامل وإبادة شعبه ..!!!

غضون أعوام قليلة فقط .. من بعد سقوط الدولـــة الإسلامية وصدور هذا القرار .. اندثـر من على وجه البسيطة شعب الأندلس المسلم تماما هو وأنظمته الحاكمة .. بعد حضارة إسلامية دامت حوالي ثمانية قرون (ثمانمائة عام) ..!!! ثمانية ملايين مسلم أبيدوا بالكامل ــ في غضون أعوام قليلة فقط ــ لم يبق منهم مسلم واحد ، كما لم يبق منهم ناطق واحد باللغة العربية ..!!! كما تم تدمير المساجد بطريقة وحشية ولم يبق منها إلا ما كان يصلح لأن يحول إلى كنيسة .

وهو نفس المصير المتوقع لعالمنا العربي الإسلامي المعاصر والمغيب فكريا تماما كما رأينا في مرجعنا السابق " **المؤامرة** " ..!!! فالغرب الحديث هو نفس الغرب القديم ..!!! **فالغرب القديم** خطط لاحتلال وتدمير العالم الإسلامي ــ وقام بحروب صليبية طاحنة في محاولة لإبادة شعوب العالم الإسلامي .. لمدة قاربت المئتي عام (سنأتي إلى تفاصيلها في كتابات تالية إن شاء الله تعالى) تحت زعم إنقاذ مقدسات الغرب الدينية من بين يدي الشعوب المسلمة الكافرة .. على الرغم من علم العالم المسيحي ــ يقينا ــ بأن مقدساته الدينية هي مقدسات للعالم الإسلامي أيضا من منظور اعتراف واحترام العالم الإسلامي لنبوة كل من موسى وعيسى ، وداود وسليمان عليهم جميعا السلام .

والآن يخطط **الغرب الحديث** (اليهودية والمسيحية بجميع طوائفها) ــ في علن كامل وليس في خفاء ــ لإبادة شعوب العالم الإسلامي تحت زعم أن هذه الإبادة ضرورية ، بل وشرط أساسي يحتمه عليهم خلاصهم الديني حتى يمكن لليهود " **العودة إلى أرض الأجداد** " من جانب .. وحتى يقبل " **المسيح الإله العائد** " بالعودة إلى الأرض مرة أخرى ، وتأسيس الملك الألفي السعيد ، من جانب اخر ..!!!

وهكذا ؛ تلتقي : اسطورة الشعب اليهودي : " **العودة إلى أرض الأجداد** " .. مع أسطورة الشعوب المسيحية : " **العقيدة الألفية السعيدة** " .. على إبادة شعوب العالم الإسلامي ..!!! حتى يمكن للشعوب المسيحية (المغيبة عقليا وفكريا) العيش في فردوس الألفية السعيدة مع إله أسطوري حيواني الشكل .. فاقد الحكمة (راجع مراجع الكاتب السابقة) .. هي غاية ما يتمنونه من اخرة مفقودة ومن إله محدود القدرة والذكاء .. على حسب رواية نصوصهم المقدسة ..!!!

وبكل أسف ؛ فإن الأنظمة الحاكمة العربية في غيبوبة نادرة وغير متنبهة لهذه الأخطار وبالتالي لا يجمعها الإحساس بهذا الخطر ..!!! فكل ما يعنيها هو الاحتفاظ بملك زائل ، لنهب ثروات البلاد ، وفرض سلطانها الجائر على شعوب طحنتها الآلام .. واليأس والمحن ..!!!

وفي المقابل ؛ نجد أن الدين الإسلامي يحذر بشدة من مغبة الحرص على الملك (أو الإمارة) .. حيث أنها **ندامة وحسرة يوم القيامة** .. كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطبا الأمة الإسلامية بقوله :

[إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ وَإِنَّهَا سَتَكُونُ نَدَامَةً وَحَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ] [٣]

والمقصود (بنعمت المرضعة ..) هو الترغيب في ضرورة أن تكون الإمارة متسمة بالتضحية والعطاء والاهتمام بالشعوب كاهتمام وعطاء المرضعة برضيعها . **والمقصود (بئست الفاطمة ..)** هو الترهيب من إمارة المنع والأنانية وعدم الاكتراث بالام ومصالح وصراخ الشعوب . كما كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن سؤال الإمارة والسعي للحصول عليها (بل وحرّمها على كل من يسأل عنها) لأنها مسئولية يجب أداؤها بحقها .. ولهذا قال الرسول (ﷺ) لعبد الرحمن بن سمرة ..

[لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا (أو : وُكِلْتَ فِيهَا إِلَى نَفْسِكَ) وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ] [٤]

ومن منظور اخر كان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ يكرهون الإمارة .. إلا في مواطن السعي في الجهاد في سبيل الله .. كما جاء في حديث الرسول (ﷺ) التالي :

---

٣ رواه معظم كتب الحديث ومنها صحيح البخاري حديث رقم ٦٦١٥ ، والنسائي حديث رقم ٥٢٩٠ . ومسند أحمد حديث رقم ٩٤١٥ ؛ عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) . موسوعة الحديث الشريف . شركة صخر لبرامج الحاسب الإصدار ١,١ .

٤ رواه أبو داود حديث رقم ٢٥٤٠ (المرجع السابق) . وفتح الباري ــ البخاري ــ ب .

[.. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأَدْفَعَنَّ الرَّايَةَ إِلَى رَجُل يُحبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْه قَالَ فَقَالَ عُمَرُ فَمَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ قَبْلَ يَوْمَئذ فَتَطَاوَلْتُ لَهَا وَاسْتَشْرَفْتُ رَجَاءَ أَنْ يَدْفَعَهَا إِلَيَّ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَعَا عَلِيًّا عَلَيْه السَّلَام فَدَفَعَهَا إِلَيْه ..] [٥]

وهذا هو الوعي الحاضر بمسئولية الإمارة في الفكر الإسلامي .. وهو الوعي الذي جعل من الخليفة الراشد الثاني " **عمر بن الخطاب** " (وما هو عمر في عدله وأعماله ؟!) يردد في لحظاته الأخيرة : " **ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي** ! " .. حتى فاضت روحه الكريمة إلى بارئها العظيم ..!!!

ويستفيض القرآن العظيم في شرح عواقب الحكم الفردي والاستبداد السياسي ، والاغترار بالدنيا والمال والأولاد .. أوجزه الحق تبارك وتعالى في قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾

(القرآن المجيد : القصص {٢٨} : ٨٣)

أي أن الفوز بالسعادة الأبدية المنشودة لن يتحقق إلا ﴿ .. **لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا** .. ﴾ وهو ما لا يتحقق في **الأنظمة القمعية** البوليسية الحاكمة التي تستبيح كل شيء ــ بما في ذلك دماء ومال الشعوب ــ في سبيل الاحتفاظ بالسلطة والسلطان ..!!!

وفي هذا الكتاب (الموجز) لن أعرض للفتوحات الإسلامية إلا في أضيق الحدود وبشكل إجمالي .. فليس الهدف هو عرض هذه الفتوحات ، بقدر ما الهدف هو عرض التسلسل التاريخي للحضارة الإسلامية على نحو مجمل ، وكذا أسماء الخلفاء والملوك والصراع على السلطة (أو الإمارة) وتوريث الملك للأبناء والأحفاد .. والذي تسبب في ضياع العالم مسلمين وغير مسلمين معا .

ومثل هذا الاتجاه (أي التوريث والتعيين) لا يعني سوى كسر (أو إلغاء) قانون : " **الانتخاب الطبيعي : Natural selection** " ..!!! أي كسر قانون انتخاب الشعوب للحاكم والمسئول الأصلح (في النظام الجمهوري الديموقراطي) . ولكن كان لابد لي أن أشير ، في نفس الوقت

---

٥ مسند أحمد حديث رقم ٨٦٣٠ . عن أبي هريرة . المرجع السابق .

إلى عظمة القادة المسلمين الذين شغلوا أنفسهم بالجهاد في سبيل الله حقا وصدقا .. وقاموا بهذه الفتوحات الإسلامية ونشر دعوة الإسلام في ربوع العالم . وهكذا انشغلت القاعدة ــ قادة وجيوش المسلمين ــ بالجهاد في سبيل الله ونشر كلمة الإسلام والدعوة له (ما عدا استثناءات قليلة) .. بينما انشغلت القمة (الأنظمة الحاكمة) في المؤامرات والصراع على المُلك للاستمتاع به وتوريثه للذرية .. وهو المُلك الذي لم تدم فيه ــ هذه الأنظمة ــ سوى سنوات قليلة .. أو حتى أيام قليلة انتهت إما بالقتل أو الموت ولم يبق لهم منه سوى ازدراء التاريخ ولعنة واحتقار الشعوب .. إلى جــانب الندامة والحسرة والعذاب إلى أبد الآبدين .. فهل تتنبه الأنظمة الحاكمة إلى هذه المعاني ..؟!!!

- **ويبقى أن أجيب على سؤال : لماذا أقدمت على كتابة هذا التاريخ ..؟!!!**

فمن منظور الأجيال الحالية ؛ فبكل أسف .. أصبحت القراءة من الأمور العزيزة والعسيرة عليها . لهذا ؛ كان عليّ أن أقدم هذا الكتاب الموجز (جدا) .. حتى يمكن لهذه الأجيال التواصل مع التاريخ والحضارة الإسلامية بشكل متصل .. هذا من جانب . ومن جانب اخر ؛ كان لابد من المصارحة والاعتراف بالواقع الأليم الذي انتهينا إليه في الوقت الحاضر . فالإصلاح السياسي أصبح ــ الآن ــ من المستحيلات ، فالأنظمة الحاكمة تقف في وجه هذا الإصلاح حتى وإن ادعت بعكس ذلك .. كما انتهت هذه الأنظمة ــ في الوقت الحالي ــ إلى تسخير قطاع كبير من شعوبها ، وبميزانيات هائلة (الشعوب في أمس الحاجة إليها) في تأمين بقائها في الملك .. كما أصبحت الجيوش في دول هذه الأنظمة تدرب على قمع الشعوب .. بل ولم يصبح الهدف من هذه الجيوش الدفاع عن حدود الدولة ووجودها .. بقدر ما أصبحت ــ هذه الجيوش ــ تمثل خط الدفاع الثالث (بعد قوات الأحراس المباشرة ، وقوات الأمن وعساكر الداخلية) للحفاظ على بقاء الأنظمة في الحكم والاحتفاظ بالملك ونهب ثروات الشعوب . وبذلك أحكمت الأنظمة الحاكمة ــ باستخدام ثروات الدول نفسها ــ قبضتها الحديدية على شعوبها [٦] .. التي طحنها الفقر واليأس والألم ..!!!

---

٦ يقول الأستاذ هيكل في الحلقة الثامنة من تسجيلات قناة الجزيرة : " .. عندما كان الأمريكيون يحتاجون إلى درجات من التعذيب للمعتقلين يخشون معها من مواجهة عواقبها أمام شعوبهم ، فكانوا يرسلون هؤلاء المعتقلين ، إلى أجهزة أشد إجراما ، في أربع عواصم عربية هي : القاهرة / وعمان / ودمشق / والرباط / حيث وصلت تكنولوجيا التعذيب في هذه العواصم إلى مستوى غير مسبوق في التاريخ ..!!! "

وبهذا المعنى أصبح الأمل في التغيير أو الإصلاح السياسي منعدم أو شبه مستحيل ، ولن يتحقق إلا بالآتي :

(١) إما ؛ قيام الشعوب بثورات مباشرة للإطاحة بهذه الأنظمة ، في صورة انفجارات عشوائية غير منظمة لافتقارها إلى " **البطل الشعبي** " الذي يمكن الالتفاف حوله . وحتى هذه الانفجارات العشوائية ــ احتمالاتها ضئيلة للغاية ــ كما وإن نتائجها سوف تكون عشوائية أيضا ، في ظل القبضة الأمنية الحديدية التي أحكمتها هذه الأنظمة على شعوبها بثروات الدول ذاتها . وتتم السيطرة الأمنية للأنظمة الحاكمة بتحديد حركة الشعوب وتفريغها من أي مضمون فكري وسياسي .. والعمل على بث الفرقة بين فئاتها (أحزاب صورية / نقابات مهنية / جمعيات أهلية / مؤسسات اجتماعية .. إلى آخره) . كما تتحقق هذه القبضة الأمنية الحديدية ــ أيضا ــ بقيام الأنظمة الحاكمة باتباع منهاج لا يسمح بظهور " **القيادات الشعبية** " (ويتم ذلك بحصار الأحزاب التي تعتبر من أهم معامل تفريخ القيادات الشعبية وظهور البطل الشعبي) حيث تقوم بالقضاء عليها في المهد وفور ظهورها . وتتبع في ذلك أساليب وطرق كثيرة متباينة : تبدأ بالقتل المعنوي للشخصيات المأمولة وتلطيخ سمعتها الاجتماعية والفكرية بالحبس الاحتياطي ــ باستخدام قوانين الطوارئ ــ تحت دعوى تهم الإرهاب . ثم تتدرج إلى السجن والتعذيب (بإلصاق تهم قلب نظام الحكم بها) .. ثم ينتهي هذا كله .. بالتصفية الجسدية المباشرة أي بقتلها الحقيقي ..!!!

(٢) أو ؛ أن يأتي التغيير أو الإصلاح السياسي من الخارج بإسقاط هذه الأنظمة على النحو الذي حدث في إسقاط نظام (الطاغية) صدام حسين في العراق بواسطة دول التحالف . وبديهي ؛ لن يكون هذا التغيير إلا في صالح الدول المستعمرة والقائمة بالتغيير .. لنهب ثروات الدول ذاتها .. يحكمها في هذا فكر المؤامرة والذي سبق الحديث عنه .

(٣) أو ؛ أن يأتي التغيير أو الإصلاح السياسي بالتغيير الذاتي الذي ينبع من أفراد النظام نفسه .. وهذا لن يتحقق إلا بالصدفة البحتة في أن يأتي " نظام حاكم " لدى أفراده الوعي الكافي بحقيقة وجود الله (ﷻ) ، وحقيقة الدين ، وحقيقة البعث والحساب والجزاء ، وحقيقة الحكمة من خلق الإنسان ووجوده (حيث يترتب على هذا إيثار أفراد النظام الاخرة على الدنيا) . وهو النظام الذي لم نره قد تحقق ــ على مدار التاريخ ــ إلا في

فترة حكم الخلفاء الراشدين فقط (وفي فترة حكم الخليفة الأموي السابع عمر بن عبد العزيز أيضا) .

ولهذا كان الدافع وراء كتابة هذا الكتاب ــ كما كان الهدف من كل كتاباتي السابقة ــ هو محاولة تبصير الإنسان بصفة عامة ، وإنسان النظام الحاكم بصفة خاصة ، بواقع وجوده ومصيره . وبهذا المعنى يمكن أن يحدث التغيير بدوافع ذاتية تنبع من داخل الإنسان ذاته وبالتالي من داخل النظام نفسه . وقد يتهمني البعض بالسذاجة (المفرطة) في الاعتقاد في محاولة التأثير على أفراد النظام .. إلى حد جعلهم التنازل طواعية عن الملك والسلطان وبالتالي يمكن أن يحدث هذا التغيير الذاتي المأمول ..!!! وهو ما لا يمكن حدوثه لأن هذا مناف للطبيعة البشرية في اتباع هوى النفس ..!!!

فأرد بالقول ؛ بأنه لا حيلة لي من أمري .. فهو قدر إلهي قد قدره المولى (ﷻ) في طبيعة خلقه للإنسان متمثلا في " **قانون الكينونة** " و " **قانون الجعل** " . فـ " قانون الكينونة " يأتي في قوله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾

(القران المجيد : ال عمران {٣} : ١١٠)

أي هكذا ؛ قضت إرادة الله (ﷻ) ــ ولا فضل لنا ــ في أن " **نكون** " خير الأمم : في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله .. وبذلك يتحقق فينا " **قانون الجعل** " .. الذي يأتي في قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾

(القران المجيد : البقرة {٢} : ١٤٣)

أي " **جعلنا** " الله (ﷻ) هكذا .. ــ ولا فضل لنا كذلك ــ في أن نكون شهداء على الناس أيضا ..!!! ولهذا ؛ كان الهدف الأساسي من كل كتاباتي السابقة والحالية ؛ هو **جعل القضية الدينية قضية علمية لا خلاف عليها** .. تلقي الضوء على وجود الإنسان ومصيره .. كما تعمق إحساس الإنسان بوجود الله (ﷻ) ، وبالموت ، وبالحساب من جنس العمل إن خيرا فخير وإن

شرا فشر ، والجنة حق .. والنار حق .. لكي يقود هذا الوعي الإنسان ــ ذاتيا ــ إلي حقبة نهاية التاريخ وتحقيق السلام على الأرض .. تحقيقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى (٤٢) ﴾

(القران المجيد : النجم {٥٣} : ٤٢)

وكما جاء في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) ﴾

(القران المجيد : الإنشقاق {٨٤} : ٦)

وربما في هذا الكفاية للإجابة على السؤال المثار : **لماذا هذا الكتاب ..؟!** ولا يبقى من هذا الفصل سوى التذكير بقوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾

(القران المجيد : طه {٢٠} : ١١٣)

وهذا هو غاية ما أرجوه وأطمع فيه .. لكل من الأنظمة الحاكمة والشعوب المحكومة ..

﴿ .. لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ ..!!!

* * * * * * * * * * * *